

عندما فاصَّ النيل . . .

للشاعر التركي إبراهيم صبرى

بقلم الأستاذ عثمان على عمل

رعشات . وبينما الألوان الوردية والبنفسجية
والحمراء . تنثى في السماء قوساً شبيهاً بعالم
خرافي ، يبدو البحر كأنما ارتفعت أعماقه .
فيتراعى كسواء مقلوقة غاصت في قراره . سماء
تتجلى فيها الأفلاك . ولكي تصمد الأنتظار إلى
هذه القبة العميقة ، تهبط كأنها تنزلق على سطح
زجاجي . ومن احتضان البحر للسّموات يتجلى
في روع الناظر عالم آخر فيرى في ضفافه حدود
الأبدية . إن اتساع البحر يجعل الأنتظار التي ترى
اللانهاى تبحث عن عالم مجهول . أما الآفاق فهي
ستار أزرق أسدل على الأفكار ، يحول بين التأمل
وبين النفاذ في محيط الكون . إن الثرى إزاء الماء
فان . ففي كل قطرة من الماء قوة كامنة خالقة لا تحدد .

وحكم التراب كالعدم فهو نهاية . عجبا لهذا التراب
إنه من أسباب الفناء ، وإنه لن أسباب الحياة !

بحثت عن شاطئ حصابؤه تلمع ، شاطئ منحد
رحب . وقد غطيت حصابؤه برمل ناعم كرش
الطيور . إن اشتياقي إليه كالحنين إلى الوطن .
فا وقع بصري على شاطئ إلا تملق به . هناك
أنعم النظر في الشمس . فما أجمل نزولها في اليم .
حينما يحجب نصف قرصها سحب أسود . تغيب
عن الأنتظار كأنما تخلع رداء أشعتها . فيخيل إلى
الناظر أن السحاب يستر وراءه قواماً جليلاً .
وإذا بألوان الأفق تمتد وتماشق سطح البحر .
وعلى هذا الجيد الفضى ترتجف أمواج هادئة تخالها

أكرمهم يقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيعة
وقد جاء ذكر أهل البادية أيضاً في سورة التوبة ، فوصموا فيها
هذه الوصمة التي جاءت في قوله تعالى (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً
وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم)
ولكن الله تعالى بمد أن أطلقها كلمة فيهم ، لأن ذلك
شأنهم ودينتهم ، وهو الطبع الغالب ، والحال الظاهر ، عاد
فذكر أن قليلاً منهم يخالفهم في هذه الطباع ؛ فقال : (ومن
الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات
عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته
إن الله غفور رحيم)

فهذا ما جاء في القرآن الكريم عن البادية وأهلها ، وهو
حرب ظاهر عليها ، وقد جاهد الإسلام حتى قضى على آثارها
بين العرب ، وجعل منهم أمة عالة متحضرة متألفة متحابية ،
وموعداً بما جاء في القرآن الكريم عن الحضارات القديمة
الأعداد الآتية .

عبد المنعم الصنعيني

فنتحر الكوم عبطاً في أرومتنا للنازليين إذا ما أنزلوا شيعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم
إلا استفادوا فكانوا الرأس يُقتطع
فمن بفاخرنا في ذاك تعرفه فيرجع القوم والأخبار تُستمع
إنا أينا ولا يأتى لنا أحد إنا كذلك عند الفخر ترتفع
فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : قم فأجبه .
فقام فقال :

إن الذوائب من فهور إخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوم

أو حاولوا النفع في أشياهم نفخوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
أعيفة ذكرت في الوحى عفتم لا يطعمون ولا يردبهم طمع
لا ييخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مَطْمَع طَبْع
لا يفخرون إذا نالوا عدوم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

ومصير المخلوقات إليه . وكأنما الأمواج حينما تتبخر
تهرب من الفناء . وهذا الإنسان اليائس الذى
يلقى بنفسه فى اليم ، يشترى إلى حياة أبدية
فى عبايه ، ليعيش بعيداً عن التراب .

لا شك أن الشمس قد ذابت اليوم فى أفق
مصر . هاهى أشعتها مادة سائلة ، تنحدر من
السما كأنها حم تذيب الأرض معها . بحثت
كسائر الناس عن خيلة أنفياً ظلها ، فذهبت
إلى شاطئ النيل ، وإذا بالنيل قد فاض وغمر .
فأين منى الآن قوافل الجبال ذات اللون الأغبر
التي ترسم على الشاطئ صورة الخائل ؟ أين تلك
الأشجار التي تزحف بين الأشجار كأجنحة
فراشة فضية ؟ وأين هاتيك الكواكب الريفية
اللائي يحملن على رؤوسهن جرات ذات قوام له
دلال العرائس يباهى دلال من يحملها ، وقد
عكست ظلالها على سطح النيل ... يا للمعجب !
إن هذا الماء كلما تدفق أسرع جريانه . أين
هذا النيل الذى رصع جيد (أم الدنيا^(١)) بعقد
من الياقوت بمجره الذى تسرى فى أمواجه
نمار التخييل الحمراء ؟ أين تلك المياه التى تفيض
بالأسرار كتلة خضراء تزخر أعماقها بألوان
مباينة ؟ أين هذا النيل الذى يتجلى فى لونه
الزمردى إشراق الفجر . هذا النيل الذى تمس
أعماقه الأهرام والسما والكواكب . هيهات !
ليس أمامى الساعة غير نهر من الذهب . بحثت
عن ضفافه فألفيتها قد سالت معه ، وبدا لى
أن هذا الفيضان يندفع كالكارثة . لم يكن
هناك فى هذا المحيط اللجى موطناً لقدم ، كأن
الطوفان قد ابتلع النبراء . ها هو النيل يجرى

(١) مصر

كنهر من الطين انطلق إلى الشمس ، كأن
من أجراه يريد أن يبنى أجراماً فى السما ،
وهو يجيش بأمواج فوارة تكاد الشمس وهى
فى مغربها تفرق فى تيارها . كأن هناك عاصفة
هوجاء تكتسح هذه الأمواج ، فلا يسمع
إلا زجرجة صاخبة . ربما كان فى هذا الطين
أسرار ، فهو لا يخرب بل يعمّر . أما حقول
بلادى الظامئة فإنها تتلف إلى قطرات تتساقط
من سما الحظ ، كأنما النيل سحر قد انساب
ماء ، فهو يحمل الرمال أخصب من أى تراب
آخر . هو يتدفق إلى الحقول وإلى القرى وإلى
المساكن ، فالنيل هو مصر ، ومصر هى النيل .
ما أعجب هذا السيل ! إنه قوام الحياة . ما أعجب
هذا السيل فهو أينما جرى وأينما طفي انبثق
النبات واستحال الفقار عماراً . قد منح أهل
بلادهم قدرة فوق طاقتهم . هل السحر جاء إلى
مصر مع النيل ، فهو كبحر مطلم غمر أرضاً
وجرى نحو محيط فى أغوار الأساطير ، وكأنما
الأهرام أحجار رسبت من مجراه فى وادى
الشياطين . وإنه ليرد من أرض حزينة ؛ فهو
يسيل أحياناً كالدم وأحياناً كدموع تنحدر
من عيون تلك الأرض التى حرموها نعمة
الأبصار . إنهم يروون أن غادة كانت فى الزمان
الناير تلقى فى عبايه . إننى أعتقد أنها أسطورة ،
غير أن هذا الفيضان الذى يدعو إلى الحيرة ،
لا بد له من سرّ خارق كهذه الأسطورة .

ترجمة
عمارة فى مصر